يعتقد أن الشعر يخرج من الماء!

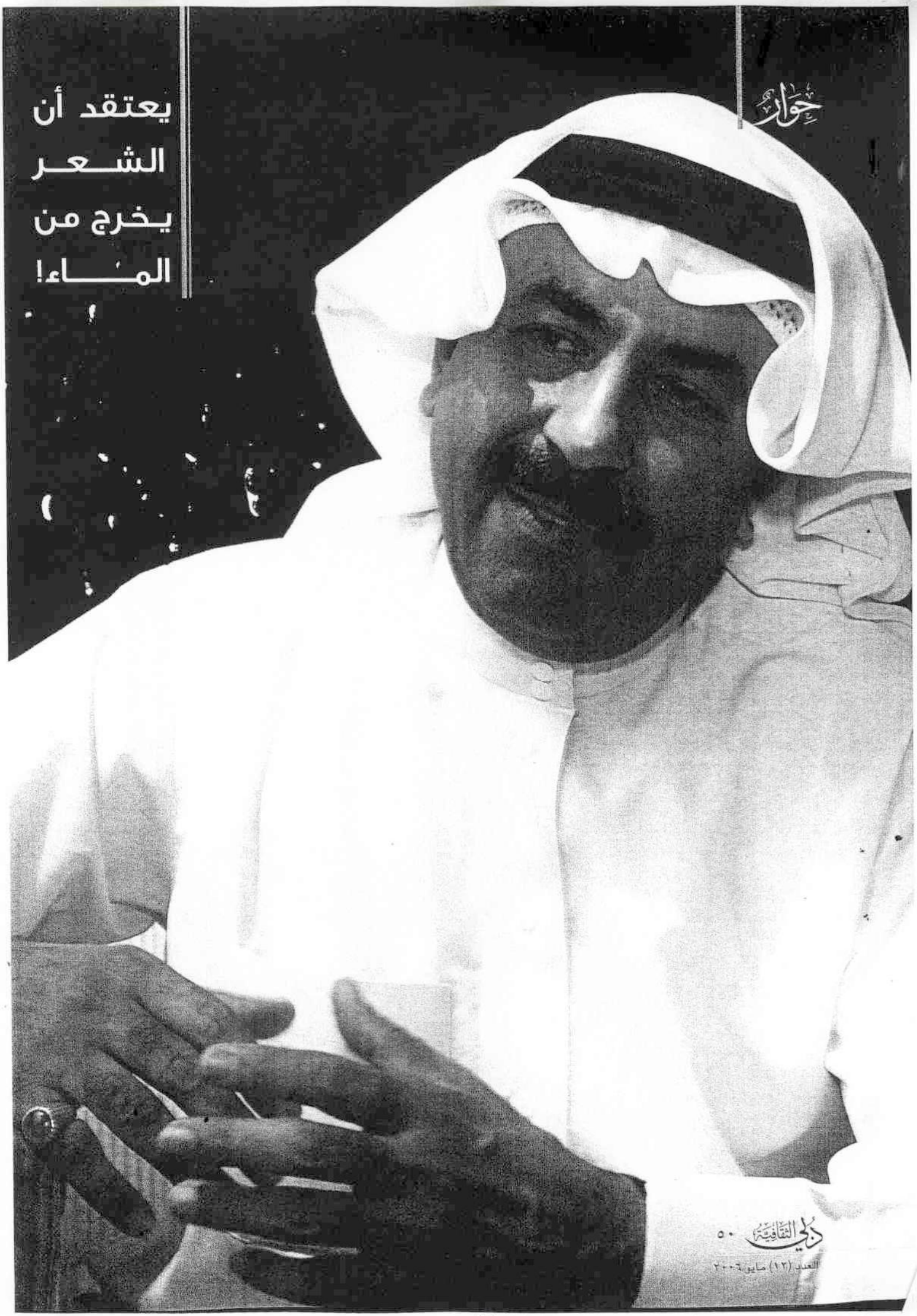

الشاعر علي خليفة: كل إنسان في البحرين شاعر!

قيل إن دلمون لا تخرج من الموج إلا إذا جاء الشعراء على جناح من موسيقا الكهوف، وجناح من حب لا يفنى ولا يذوب.. وهكذا، يحق لزائر البحرين أن يلمح تاريخ دلمون يصعد من المياه كترتيلة قديمة.

حوار: **غالية خوجة**
تصوير: **كوتي**

لا أعرف لماذا تداعت أمامي تلك الأمواج والذكريات والأحلام حين حضرنا احتفالية الشارقة بيوم الشعر العالمي التي أحياها الشاعر البحريني علي عبد الله خليفة، والموسيقي أحمد الجميري، والفنان التشكيلي عبد الله يوسف..؟

ربما لأن منصة الإلقاء تحولت إلى لحظة غريبة، تمسرح فيها الفن التشكيلي المتناغم مع القصائد المغناة لتكون الأمسية حاضرة بحواس جديدة : بصرية وإنشادية، وتشكيلية وغنائية، وشعرية.

لقد تضافرت هذه العناصر الفنية لترتفع بحواسنا إلى لحظة جمالية عالية تطرب لها المخيلة فتتحرك أعماق المتلقين مع الكلمات والوجدانيات الذاتية والوطنية والفلكلورية والمعاناة الباعثة على النشيج والتأمل والصمت.

الشاعر علي خليفة من مواليد المحرق ١٩٤٤، له العديد من المجموعات الشعرية منها : (أنين الصواري، في وداع السيدة الخضراء، إضاءة لذاكرة الوطن، حورية العاشق)، وترجمت مختارات من أشعاره إلى الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والبولندية، حاصل على دكتوراة فخرية في الآداب من جامعة سيكلونا الأمريكية عام ١٩٨٩، منحته مملكة البحرين وسام الكفاءة من الدرجة الأولى عام ٢٠٠٢، وله حضوره الشعري في المشهد الثقافي العربي.

التقيناه وكان معه هذا الحوار..

• علي خليفة شاعر مجرب ينهل من الذاكرة والمخيلة، مستخدماً لغة تكثف المكونات الوجدانية، كيف تستدرج مكونات نصك الشعري بين الذاكرة والمخيلة؟

– الذاكرة بيتي الأول أرجع إليه كلما شغفني الحنين، أعود إليه وأنا مفعم بشعور يعيدني إلى الأصل، يعيدني إلى الجذر ويكشف خبيئتي. الذاكرة مخزون جميل لا يمكن أن أتخلص منه، أو أن أمسحه، لأن الذاكرة تختزنه لي وحدي ولا تبيحه لغيري إلا برضاي. إذاً، هي ذاكرتي، هي أنا.. أما المخيلة فهي مفتاح الذاكرة.. لأن الذاكرة دائما بحاجة إلى مثير، والمثير هو المخيلة التي تعيد صياغة الذاكرة وتجعل منها مادة ثرية للإبداع. ولا يمكن للذاكرة أن تكون مادة ميتة إذا كانت ذاكرة مبدع، لأنه يعيد صياغة هذه الذاكرة كما يشتهي إبداعه وكما تمليه عليه ظروف اللحظة المبدعة.

• اليوم قدمت ظاهرة إبداعية اشترك فيها التشكيل والموسيقا والكلمة الممسرحة، كيف تكوّنت هذه الفكرة التي نحن بحاجة إليها لكسر رتابة الأداء ونمطية التلقي؟

– نحن في زمن امتزاج الفنون وتداخلها، وهو منطق العصر لأنه منطق الامتزاج والتداخل.. والشعر في زماننا لا بد أن يهادن الفنون كلها ليكسب منها كل ما يمكن أن يعين على التوصيل والتواصل مع المتلقي. وما قدمناه الليلة ما هو إلا صورة من صور تكاثف الفنون وتداخلها وامتزاجها.. فالشعر، هنا، ليس كلمات، وإنما كلمات ممسوقة تُغنّى وتتحول إلى لون.. هذا اللون ليس لوناً على قماشة وإنما هو لون مبهور بالضوء، تعكسه بؤرة توصل ما بين اللوحة ومصدر الضوء (البروجكتور). هذا التقارب الحادث بين التشكيل والنغم والكلمة هو مادة بيد مخرج مسرحي يحاول أن يقدم فناً مؤتلفاً على خشبة تستوعب كل الفنون بما فيها تقنيات الصوت والبصر والرؤية الإخراجية في جو سينوغرافي يلعب فيه الإلقاء لعبته السحرية، ويتجلى مع التماعة عيون المتلقي. ولا يمكن - هنا - فصل اللون عن النغم عن الكلمة، ذلك لأن النغم لون، والكلمة نغم، والوتر حرف.. كما أن الانسجام الحاصل بين مبدعي هذه العناصر هو سيد الموقف، لأنه يقدم

توليفة من الفنون المتجانسة والإبداعات المتآلفة زماناً ومكاناً لتأدية لمعة من لمعات الإبداع.

• **اسم علي خليفة يستدعي إلى ذاكرتي.. الماء والبحر والنار والصدف والجوهرة وشراع الروح، هل هذه العناصر موجات الحالة الشعرية لديك؟**

– هذه العناصر هي ماء الروح، وذوب أنوثة الموهبة. في دواخلنا جوهر نادر، ومن النادر أن نلمسه، فالله خلق البشر بإبداع متناه ، وقليل من البشر يدركون هذا الإبداع المتناهي. وما المبدعون إلا البشر الذي يدركون هذه القيمة ويصلون إلى بؤرة خاطفة من الزمان قد تطول.. إن الجوهر هو القيمة والمعنى وبؤرة الخليقة.. لا يمكن للشاعر أن يدرك ماذا تعني الموهبة إلا حين يدرك القيمة الحقيقية لبؤرة التكوين والخلق نفسها، وهي برهة للحياة.. والشاعر مرتهن لهذه البرهة لأنها لحظة انطلاقه إلى القصيدة، أو لحظة انطلاق القصيدة إليه. أتأمل ـ دائماً ـ كيف تبدأ القصيدة عندي، وأسائل نفسي: كيف تمر بي هذه اللحظة بغفلة مني؟! وكيف لا أستطيع اقتناصها وتحويلها إلى لحظة ذهنية؟ كما أنها لماذا ليست لحظة القلب والعاطفة والشعور فقط؟ إنها الدفقة الساخنة التي يجريها القلب بالعروق، ذوب من المشاعر الصائرة إلى التشكّل، ملكوت من التجلي الذي يرفع المبدع من كونه إنساناً عادياً إلى لحظة الخلق النارية التي لا تفصل بينه وبينه، لحظة نادرة لن ولن أسمّيها.. لن أسمّيها!!

• **الشعر في البحرين مرّ بأطوار عديدة.. ماذا تحدثنا بهذا الشأن؟**

– الشعر في البحرين هو امتداد لخفقة قلب الإنسان على الرمل، وهو نفسه ذلك الوهج المتألق في عيون الناس، وهم بين النخْل والصحراء والبحر. لا يمكن تحديد بداية لأول وهج بين العين والضوء، فلذلك صلة الإنسان في البحرين مع الشعر حالة عريقة تمتد إلى التكوين الأول للإنسان، فأسطورة (دلمون) تجعل للماء إلهاً، والماء سر الحياة.. فكيف يكون للشعر وجود من دون الماء؟ والبحرين جزيرة ماء.. (انكي)،، وأسطورة (جلجامش) في بحثها عن سرّ الخلود مرتبطة بالماء، فسر الخلود هو الشيء ذو العلاقة القائمة على البحث في الماء وما يخبئه من أسرار. فالشعر هو الماء الذي يخبئ الأسرار، ويغري جملة الغائصين في الغوص أكثر في الأعماق.. البحر لغة الشعر.. لأنه بلا حدود.. والشعر لغة البحر لأنه سر من أسرار الحياة.. ومن الذي أدرك كنوز البحر والشعر؟ إذاً، البحرين هي سر من أسرار الماء والشعر.. وكل إنسان في البحرين يحاول أن يكون شاعراً، أو كاد يكون شاعراً..

• **«بحرك ماء وبحري نار وماء وتراب وهواء وموسيقى تائهة في اللامرئي».. ما رأيك لو كان بحرك أكثر من هذه العناصر المتفاعلة؟**

– التضاد جميل، والمناغمة بين الليل والنهار عالم آخر.. عالم قد يشبه ما ينمو بين الشعر والموسيقى والتشكيل.. الجميل في الموسيقا هو الأثر الذي تتركه في الآخر.. هذا ما لمسته من المتلقين.. إنهم لا يجاملونني.. استطاعت الأمسية أن تكون حزمة من الفنون، أن توصل أو تساعد أو تجذب إلى منطقة تبادل الأثر والتأثير والتوصيل.. التوصيل هبة روحية وفكرية مشغولة بأثرها الباقي.. أشعر بأن الفنون جميعها تتقمصني.. فأنا في ذات اللحظة العازف والمغني والتشكيلي والشاعر وفني الصوت والإضاءة.. يغيب الشاعر في الشعر وهو يبدع فلا تبقى معانٍ مكتوبة ولا تختصره المساحة اللونية والتشكلية.. الكلمة تتخلّق بأكثر من وجه.. وجهها هي، أم وجوه المحيطين بي، المصغين إلى هذا الجو الإنشادي الغنائي التشكيلي الذي تبادلناه أو تمازجناه أنا والفنانان أحمد الجميري وعبد الله يوسف، وكلاهما صاحب تجربة فنية إبداعية، فـ (الجميري) يذوب في القصيدة ليعيد كتابتها موسيقياً بحساسية باذخة، و(يوسف) مجنون تشكيلي، مجنون مسرحي، مذيع، وهائم في المعنى الذي لا ينتهي. ◇